

من مقاطعة «الثقافة الصهيونية» إلى ثقافة المقاطعة العربية

أحمد بهاء الدين شعبان*



المعركة معركة ثقافية

المعركة التي يستعر أوارها على أرضنا منذ عقود طويلة هي في جانب رئيسي منها معركة ثقافية، ساحتها العقل والذاكرة والمفاهيم والوعي والهوية. ومن أجل التأثير في هذه العناصر رُسمت الخطط، وصيغت البرامج التي تستهدف الهيمنة عليها تحت مسميات عديدة، مثل ثقافة «القبول بالآخر»، و«ثقافة التسامح»، و«ثقافة السلام»... إلخ. ولعب عناصر «الطابور الخامس الفكري»، أو ما أطلق عليه مؤخرًا اسم «المارينز الثقافي»، دوره في «الصف التمهيدي» العنيف والمركّز من أجل تهيئة الأجواء الضرورية لتقدم المشروع الأميركي - الصهيوني للهيمنة العسكرية والاقتصادية والسياسية.

ومن أجل تحقيق هذه الغاية رصّدت الولايات المتحدة ملايين الدولارات لشراء ندم بعض المثقفين الفاسدين، وجرّهم إلى مستنقع «التطبيع». وأعلنت عن إطلاق محطة فضائية موجّهة إلى الجماهير العربية، بعدما لمست رفضًا عربيًا شاملاً لادعائها وسياستها في منطقتنا. كذلك أطلقت موجة إذاعية خفيفة موجّهة خصيصًا للتأثير في وعي الأجيال الجديدة من

الشباب العربي، (هي إذاعة «سوا»). وأصدرت مجلة شهيرة موجّهة للقطاع نفسه.

وليست هذه المساعي المتواترة، في الواقع، بجديدة على بلادنا. فبالعودة إلى اتفاقية كامب ديفيد سنكتشف اهتمامًا واضحًا بإدراج قضايا «التطبيع الثقافي» في مقدمة أشكال التطبيع التي سعت الدولة الصهيونية، ومن خلفها وأمامها الولايات المتحدة، إلى فرضها على المؤسسات الرسمية المصرية، ومن ثم العربية. وقد أكد الرئيس الإسرائيلي السابق إسحق نافون أهمية هذا العنصر، محددًا أن «تبادل الثقافة والمعرفة لا يقل أهمية عن أية ترتيبات عسكرية وسياسية» تُتخذ بين الطرفين المصري والإسرائيلي.^(١) وتحدثت عن ضرورة «تبديل صورة الإسرائيلي لدى العقل العربي»... وهو الطلب عينه الذي ألح عليه مناحيم بيغن في زيارته لمصر يوم ٢٥ أغسطس ١٩٨١، حين أبدى استيائه من تباطؤ معدلات «التطبيع» بين دولة العدو الصهيوني ومصر مؤكدًا أن إسرائيل «لا يُمكن أن ترضى بأن يستمر الطلبة في مصر في دراسة كتب التاريخ التي تتحدث عن اغتصاب إسرائيل لفلسطين، وكتب التربية الإسلامية التي

* عضو مؤسس في حركة «كفاية».

١ - أنظر: عرفة عبده علي، تهويد عقل مصر (القاهرة: دار سينما، ١٩٨٩)، ص ١٥.

أجل حشد الجهود الوطنية لمواجهة المحتل وتحرير الأرض السليبية.

- دور «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية» التي تأسست في ٢ أبريل ١٩٧٩ تحت شعار «المقاطعة الشاملة لكل عمليات التبادل الثقافي والعلمي والتربوي والفني مع المؤسسات الصهيونية». وقد لعبت اللجنة دوراً مشرفاً في التصدي لمحاولات الاختراق الصهيوني على الجبهة الثقافية، وخاضت معارك فكرية ضارية للرد على ترهات «الطابور الخامس الثقافي» والعدو الصهيوني الأميركي، وأسهمت بدور بارز في منع الدولة الصهيونية من الاشتراك في المعرض السنوي للكتاب.

- دور النقابات المهنية المصرية الريادي في هذه القضية، مثل: «نقابة الصحفيين» التي أصدرت جمعيتها العمومية قراراً عام ١٩٨٢ برفض التطبيع وجميع أشكال التعامل مع العدو الصهيوني، وجرمت زيارة أعضائها للدولة المغتصبة تحت أي ذرائع؛ و«نقابة المهندسين» التي أصدرت في فبراير ١٩٨٨ قراراً بمقاطعة الدولة الصهيونية ورفض جميع أشكال التطبيع.

- نوادي أعضاء هيئات التدريس بالجامعات المصرية، والتي نشطت من أجل تنظيم صفوف معارضة التطبيع العلمي والثقافي، وبالذات في الأوساط الأكاديمية.

- تجمعات المثقفين والمؤتمرات الأدبية، عبر الأشكال القائمة مثل «أئليه القاهرة»، و«نوادي الأدب في الأقاليم ومؤتمرات المحافظات الثقافية». وكذلك اتخذت الموقف نفسه جمعية نقاد السينما المصريين، التي بادرت منذ مارس عام ١٩٧٩ إلى نشر بيان وجهته إلى أعضائها، حاثاً إياهم على عدم التعامل مع الصهاينة بأي صورة من الصور.

- اللجان الشعبية المقاومة للتطبيع، مثل «الحركة الشعبية المصرية لمقاومة الصهيونية ومقاطعة إسرائيل»، التي أصدرت نشرة الصراع لفضح أبعاد عمليات التطبيع.

وعلى مستوى آخر، فإن الحركة الإبداعية لم تتوان عن مساندة الجهود المشروعة للجماعة الثقافية الوطنية في مواجهة هذه الغزوة. وسنركز هنا على قضية مقاطعة الجماهير المصرية والعربية للسلع والشركات والمصالح الصهيونية والأميركية والبريطانية، وخصوصاً في الفترة التي واكبت وقائع الاجتياح الصهيوني للأراضي الفلسطينية، وكذلك العدوان الأميركي - البريطاني على الشعب العراقي.

المقاطعة العربية: الزخم التاريخي

لقد واكبنا وقائع استعادة «قضية المقاطعة» لزخمها التاريخي. فكما هو معروف، لجأت جماهيرنا مراراً إلى

تحتوي آيات من القرآن تندد باليهود وتلعنهم! (١) وقد صك بنيامين نتنياهو مصطلح «إعادة تثقيف العرب» كتوصيف لهذه العملية التي تستهدف إعادة هيكلة الذاكرة العربية لكي تكون مهيأة للقبول بالمقولات الصهيونية، بعد أن لاحظ عن حق أن «مصير العلاقات بين العرب واليهود سيتحدد في المدارس والجامعات، وفي قاعات تحرير الصحف، وفي المساجد». (٢) فعلى رغم مرور أكثر من عقدين على أول معاهدة سلام عربية - إسرائيلية، فإنه «لا يوجد قبول لإسرائيل في هذه البوتقات لتعليم العرب وتثقيفهم. فلا اسم إسرائيل، ولا كتاب مقرر في المدارس يشير لاسم إسرائيل كدولة لها الحق في الوجود، ولا طفل يتعلم أن إسرائيل هي جارة دائمة، ولا صحيفة تتجنب أكثر أنواع التحريض المشحونة بالسموم ضد إسرائيل واليهود، ولا أي قيادة دينية في العالم العربي تبشّر بالتسامح تجاه الدولة اليهودية. ولن يحدث هذا التغيير إذا لم يقم المثقفون والقيادات الروحية في العالم العربي بالانضمام إلى الدعوة للقبول بإسرائيل!» (٣)

وفي مواجهة هذا التحدي فإن الجماعة الثقافية العربية، والمصرية في المقام الأول، استشعرت الخطر الكامن وراء هذه الهجمة العنيفة المركزة على الساحة الثقافية، والتي دعمتها جهات أميركية وأوروبية عديدة، بعد الهجوم التمهيدي الذي شنّه مثقفون من عينة علي سالم وأمين المهدي وعبد العظيم رمضان ونبيل فوده.

وقد كُلت الجهود الوطنية بالنجاح، وتم إفشال كل محاولات الاختراق المتكررة، وأخطرها محاولة «مأسسة» الجهود التطبيعية عبر «تحالف كوينهاجن» الذي أسسه الكاتب الراحل لطفي الخولي، وشارك في أنشطته الدكتور عبد المنعم سعيد، والسفير صلاح بسيوني، والدكتور مراد وهبي، وآخرون، كـممثلين للطرف الرسمي المصري، إضافة إلى ممثلين لدولة العدو الصهيوني، على رأسها ضابط جهاز الموساد السابق ديفيد كيمحي وممثلون للنظام الأردني وللسلطة الفلسطينية. وقد حوَصر «تحالف كوينهاجن» من جراء الجهود المكثفة التي بذلتها الهيئات الوطنية المقاومة لـ «تطويع» الإرادة الوطنية تحت مسمى «التطبيع»، حتى قُيِّضت له الوفاة النهائية بعد وفاة عرابه الأول لطفي الخولي.

ومن المهم أن نشير هنا إلى بعض المحطات التي شكّلت مسيرة «الدروع الثقافية» لمخططات التطبيع في مصر، على مدى العقود الثلاثة الماضية:

- الضغوط التي مارستها الحركة الوطنية الديمقراطية لطلاب مصر عبر انتفاضتها المتكررة، منذ هزيمة ١٩٦٧، من

١ - جريدة الرأي الأردنية، ١٠/٩/١٩٨١، مذكورة في المصدر السابق، ص ١٦.

٢ - ٣ - محمد وهبي، «بنيامين نتنياهو: إعادة تثقيف العرب ضرورة من ضرورات السلام»، مجلة المصور، القاهرة، ٢٨/٧/١٩٩٧.

عمليات المقاطعة لسلع وخدمات المستعمر، الصهيوني في فلسطين، والأوروبي (البريطاني والفرنسي والإيطالي...) في بلدان عربية أخرى. ولأسباب عديدة فقد تمت أبرز عمليات المقاطعة في مصر، إذ واكبت هذه العملية الدعوة التي أطلقتها الحركة الوطنية المصرية في العقد الثاني للقرن المنصرم، بقيادة سعد زغلول باشا، لبناء اقتصاد وطني مستقل. ولعل أشهر من آمن بقضية مقاطعة المنتج الأجنبي، وانحاز بكلّيته إلى إنتاج «أولاد البلد»، كان فنّان الشعب الكبير، بيّرم التونسي، الذي احتفى بتجربة شعب دولة صديقة في المقاطعة (وأيضاً للعدو ذاته، أي الاحتلال الانجليزي)، هو شعب الهند تحت زعامة المهاتما غاندي. فكتب ممجداً تجربته:

الإنجليز دولٌ أهل عرّة شُرُّهُم ويسكي ومرّة
وأنت تغلبهم بمعرّة بنت أربع سنين!
أما الذين يلجأون إلى تخويف الجماهير الشعبية من سلاح المقاطعة، باعتباره مصدرًا لإثارة الأعداء والخصوم، فإن بيّرم يردّ عليهم بأنّ المواجهة في هذه الحالة ستكون واجبة:

حاتقول بينتنا معاهدة وتشوف أمور المناهدة
نعود قوأم للمجاهدة والبحر يصبح طحينة!
وعلى هذا المنوال، استمرّ الشاعر الشعبي المصري المعاصر ينسج من نسيج «الجد بيّرم». فكتب ماجد يوسف قصيدته البديعة: «قوم نقاطع في بضايح الصهاينة الأمريكان»، بعد أن استفزه العدوان الأميركي - الصهيوني المتصاعد على أبناء شعبنا الفلسطيني البطل. ومما جاء فيها:

قُوم يا ولدي.. يا بنت بلدي
بعبد كل شيء ما بان،
قوم نقاطع في بضايح
الصهاينة - الأمريكان [...]
الغضب ما بقاش كفاية
والبكا وحسن النوايا،
قومو نتوحّد في غايه
القعود للجبان! [...]
كلنا نوحّد قرارنا
من صغارنا ومن كبارنا
نمنع الداخل ديارنا
م السجاير للبان [...]^(١)

قوة الأعداء خرافه
ضعفنا هو السخافه!
لو تقاطعه الأمه كاقه
شروط يملانا الإيمان [...]
بس قاطع يعني قاطع
كل شيء عاملاه مصانع
كل إنتاج المزارع.
حتى لو بيلاش كمان [...]
صدّقوني لو جمعنا
كل صوت في الدنيا معنا
مش ح نشفي من وجعنا
إلا بنزلنا الميـدان.
والميدان هو المقاطعه
حاجه حاجه.. وقطعه قطعه
والنتيجه واضحه وساطعه
وقالها غاندي من زمان! [...]
م الخليج والى المحيط
إحنا تعداد مش بسيط
والعدو ماهوش عبيط
لو قفلنا له البيبان!
قوم يا ولدي.. يا بنت بلدي
بعبد كل شيء ما بان
قوم نقاطع في بضايح
الصهاينة - الأمريكان^(٢)

وتستفزّ الشاعر محمود الطويل رؤية العلم الأميركي منتشراً في استخدامات بعض شباب هذا الجيل وأطفاله، فيكتب قصيدة مبسّطة في ديوان للأطفال تحت عنوان «أبجدية الأقصى»، تتسبّب - مع غيرها من القصائد - في امتناع «الهيئة العامة لقصور الثقافة» عن طبع الديوان! يقول الشاعر في ما يقوله:

للي بيكسب واللي بيخسر فيها إفاده
شلمي المصري أب وجد
حتى اللعبة واخذها بجد.
لكن شلمي ليه زعلان؟!

١ - العلكة.

٢ - جريدة العربي، القاهرة ١٢/١١/٢٠٠٠، ص ١٨.

بصّ شويّة وقاللي عشانُ
عمرى ما شُفّت العَلمَ المصري
إِلّا الصُّبُحُ مع الطّوابير
أو في نهاية التلفزيون!
وأدي أبويا
شايِلُ شَنطَةُ علم أمريكا،
عَجَلَةٌ^(١) أخويا
بُرْضَةُ عليها علم أمريكا!
أَكُلُ مامتي
الكنتاكي.. علم أمريكا!
والجرانيتة علم أمريكا!
حتى الجَرْمه
علم أمريكا.. علم أمريكا! [...]^(٢)

ولم تقتصر المطالبة بالتححرر من «علم أمريكا» في كلِّ ما نستهلكه وما نتداوله من حولنا على شعراء العامية، المعبرين المباشرين عن وجدان الناس، وإنما انحاز أيضاً الشعراء الذين كتبوا باللغة الفصحى لقضية المقاطعة. فالشاعر أحمد محمد عبد الجواد يكتب قصيدة «قاطع سلعة المجرم»، وفيها:
من البيبسي إلى البوينج، قاطع سلعة المجرم
وحثُّ الناس، كلِّ الناس، أن ينأوا عن المَغرْم
فليس المشتري سلعةً لأعداء الهدى يَغْنَم
فكم بالمال نُدفعه بيوت حَبّتي تُهدم!

الأغنية والمقاطعة

غير أن أبلغ مَنْ عبّر عن أهمية سلاح المقاطعة كان المغنين الشعبيين، الذين لمسوا وترّاً حسّاساً في قلوب الجماهير باستخدام اللحن والكلمة والصوت والإيقاع أدواتٍ طبيعيةً لنشر الدعوة المنحازة لقضايا الوطن. ومن أجمل الأغنيات، في هذا السياق، أغنية «المقاطعة» التي كتبها حسن حامد، ولحنها وغناها علي اسماعيل. ومن كلمات الأغنية:
الكوكاكولا تمنّأها رُصاصه في قلب أخويا.. ليه أشربها؟
... مش ح شربها!
وادي في علبه «أريال» دانه.. ليه أفجرها؟

... ليه أفجرها؟

يالاً نقاطع مارلبورو ومعها مريت، يلاً قاطعها!

... راح أقاطعها!

وكمان وجبات ماكدونالدز.. إوعى تاكلها!

... مش راح اكلها!

ضيف ع اللسته^(٣) كمان سنسبري^(٤)

وينطلونات الجينز ليقاين،

وملابس من صنع صهاينه ماركة «نايك»

يبقى بدأنا بسبع أصناف.. بكره نكملها!

... إحنا نكملها!

وهناك أغنية ساخرة، جميلة، أخرى، كتب كلماتها الشاعر علي عبد العزيز، ولحنها الفنان محمد العفيفي، ويعنيها «فريق ضي». ومن كلمات الأغنية:

هأو أو أو بقرتنا بتحلب دولسي

وينزرع شيبسي كريسبي

هنبيع النيل، وبتمنه نحفر لك أنهار بيبسي!

خلينا البيتزا عشاكي! ربينا فراخ كنتاكي!

وإن فكر ديكك يدن، راح نعمله مرقة ماجي!

.. وفن الكاريكاتير أيضاً

وكم كانت قصائد الشعر والقصة والأغنية أدوات فعالة لدعم قضية المقاطعة في مواجهة خصومها، الذين ادعوا أنها تهز استقرار الاقتصاد المصري وتطرد رأس المال الأجنبي من بلادنا. ففن الكاريكاتير في مصر فن راسخ، له تقاليد رفيعة، ولطالما أعلن انحيازه لقضايا الأمة، خصوصاً على يد فنانيه الكبار: زهدي وصلاح جاهين وحجازي وبهجت.

خاتمة

هذه الإشارات قصداً بها لفت الانتباه إلى الدور المحوري الذي تلعبه أدوات المواجهة الثقافية في تنشيط الحركة المضادة لمخططات اختراق العقل العربي وإجراء عمليات غسيل المخ المنظم لمواطنينا، وخاصةً للأجيال الجديدة من شبابنا وأطفالنا.

القاهرة

١ - دراجة.

٢ - مجلة الغد العربي، العدد ٥٠، يناير/كانون الثاني ٢٠٠٣، ص ٥٨.

٣ - القائمة.

٤ - مجموعة من محلات سوبرماركت إنجليزية الجنسية، طردت من مصر بعدما حوصرت جماهيرياً لثبوت تبرعها لإنشاء المستوطنات الصهيونية على الأرض الفلسطينية المغتصبة.